الخطوات الأولى
في تقدم الإنسان

obeikandl.com

الفصل الاول

كيف بدأ الانسان حياة جامعا للغذاء
أقدم أساليب المعيشة الانسانية ..

لم تمض غير قرون قليلة على الوقت الذى كان فيه منظر هجوم ذئب جائع من الغابة ليخطف طفلا من الطريق فى قرية من قرى شمال أوربا أمراً عاديا . بل وفى ايامنا هذه مازال النمر الآكل للبشر فى الهند والأسد المفترس فى أفريقيا مستمرين فى قتل الانسان ونهش لحمه .

وانقرضت تدريجيا الحيوانات الكبيرة الثديية رغم قوتها العظيمة ، ولم تستطع مقاومة القوى الطبيعية التى استطاع الانسان أن يتغلب عليها ، إذ رقى الانسان فى نفسه المقدرة على مواجهة الحيوانات الثديية التى كانت تنافسه فى السيطرة على الأرض ، وبهذا أصبح تقدمه ساحقا لايعرف الرحمة ، فاختفت الزرافة والفيل من شمال وادى النيل فى بداية العصور التاريخية ، على الرغم من أن الأسلحة التى استعملها الذين عاشوا فى عصر ما قبل التاريخ كانت أسلحة بدائية ، وكذلك تسبب الملوك المحبون للصيد فى بلاد الشرق القديم فى القضاء على الفيلة الآسيوية من سهول أعالى الفرات منذ بضعة آلاف من السنين .

وكنا نعلم جيداً كيف تم القضاء على حيوان البيسون فى أمريكا وكذلك كيف أصبحت الفصائل الباقية من الغوريلا على وشك الاختفاء من أفريقيا ، مما جعل علماء التاريخ الطبيعى يرون أن تقدم صناعة الأسلحة فى الأجيال القليلة الماضية كاد يجعلنا نصل إلى آخر عصر الثدييات .

وليس هذا إلا مثلا واحدا واضحاً لانتصار الإنسان. فإن تفوقه لم يأت إلا بطيئاً

جداً ، وعلى مراحل تدريجية . واستطاع العلم الحديث أن يتتبع تطور تلك المراحل على مدى مئات الآلاف من السنين ، ونستطيع أن نرى بجلاء ، وخطوة بعد أخرى ، كيف ازدادت مقدرة هـــذا الإنسان فى الدفاع عن كيانه بين العناصر المتنافسة على الحياة ، وتحصين نفسه أمام قوى الطبيعة ، وقد ازدادت إلى حد كبير عندما أصبح هـــذا الانسان أول المخلوقات بل والوحيد من بينها الذى أمكنه صنع الادوات .

ونحن نعرف عن بعض الحيوانات قدرتها على مسك العصا أو قطعة من الحجر واستعمالها كآلة فى يدها ، ولا شك أن السلف من أجدادنا الذين عاشوا فى أقدم عصور الانسانية فعلوا ذلك أيضاً ، ولكن هؤلاء السلف الأوائل خطوا خطوة إلى الأمام وكانت خطوة أساسية لم يستطع غيرهم من المخلوقات أن يخطوها. لاحظ الإنسان أن حجره الذى التقطه من الأرض لم يكن ملائما ملاءمة تامة لغرضه ، لقد فحص شكله ولم يرض عنه ، وعدم الرضاء عامل مهم فى التقدم بل أساسى له . وهكذا ربما خطر لأحد الرجال البدائيين والذى كانت لديه موهبة التفكير أكثر من غيره أن يضرب حجرا بآخر ، وهكذا تمكن من تحسين شكل الحصاة التى التقطها وجعلها أكثر ملاءمة للغرض الذى أراد أن يستعملها فيه ، وبهذا صار أول المخلوقات التى صنعت الأدوات . أصبح مخلوقا يستعمل ذكاءه لا لسدجوعه بما يجده من مواد غير حية فحسب بل يستعمل ذكاءه أيضاً لتشكيل بعض أنواع الجماد لتصبح أدوات تساعده كثيرا فى السيطرة على دنياه التى حوله وما فيها من كائنات حية أو غيرها .

وتقدمت خبرة هذا الانسان فى صناعة الأدوات والآلات وتدبير الحيل الآلية. ولم تقف هذه الخبرة عند الحد الأول بل استمرت وكانت لها أعمق الأثر فى ارتقائه. وكانت مقدرته فى صناعة الأدوات السبب الرئيسى فى تطور مركز هـذا الانسان فى الحياة الانسانية.

ولكى ندرك هذا الأمر يجدر بنا أن نتلفت أولا حولنا ثم ننظر إلى الوراء.

فإننا نعرف جميعا أن أجدادنا لم يستمعوا فى حياتهم إلى جهاز الراديو أو رأوا طائرة عندما كانوا فى سن الطفولة ، وأن قليلا جداً من بينهم من استقل سيارة فى يوم من الأيام . وعاش آباء هؤلاء أكثر أيام حياتهم بغير نور كهربائى أو تليفون فى منازلهم . وكان أجدادهم مضطرين لقطع مسافات شاسعة فى عربات السفر التى تجرها الجياد . ومن بين هؤلاء من مات دون أن تكتحل عيناه برؤية القاطرة . فقد اخترعت هذه الأشياء واحدة تلو الأخرى ووصلت إلينا ، وسنخترع أشياء أخرى وستؤثر فى حياتنا . وكل واحد من هذه الاختراعات يستند إلى ما كان قبله ، ولولاها لكان من المستحيل أن تتحقق إذا لم تسبقها أبحاث أقدم منها ، وإذا تعمقنا قليلا فى دراسة تاريخ الجنس البشرى فأنه يسهل علينا أن نتصور اليوم الذى عاش فيه الإنسان وكان من المستحيل عليه عمل عربة سفر أو أى نوع من العربات لأن العجلة لم تكن قد اخترعت بعد ولأن أحداً لم يذلل الجواد البرى .

وقبل تلك الأيام لم تكن هناك سفن ولم يكن هناك سفر أو تجارة عن طريق البحر ، ولم تكن لديه أدوات معدنية لأنه لم يكن هناك من رأى معدناً إذ ذاك . وكان من المستحيل أن تقام مبان جميلة أو أى أبنية من الحجر إذ لم يكن الإنسان قد عرف استعمال أدوات من المعدن لقطع الإحجار . ولم يكن ميسوراً لأحد من الناس أن يكتب شيئاً لأن الكتابة لم يكن قد اخترعها أحد ، وبالتالى لم تكن هناك كتب أو أى معرفة بالعلم .

فإذا ماتعمقنا أكثر من ذلك فى الإلمام بقصة الإنسان نجده همجياً ولكنه أرقى قليلا من الحيوانات التى حوله مهما كانت متقدمة ، إنه لم يكن يمتلك شيئاً غير يديه الفارغتين يستعملهما لحماية نفسه وإشباع جوعه وتأدية كل أغراضه الأخرى . ولا شك أنه كانت تعوزه القدرة على الحديث المنتظم ولم يكن فى مقدوره أن يشعل النار ولم يكن هناك من يعلمه شيئاً من ذلك . وهكذا كان أقدم البشر مضطرين لأن يتعلموا كل شىء بأنفسهم عندما بدأوا فى تلك الحالة . وكان سبيلهم

إلى ذلك التجربة البطيئة والمجهود الطويل . لقد مرت أجيال طويلة على هذا الإنسان وكان فى ذهنه الهمجى شىء من شعاع الذكاء ولكنه لم يحقق شيئاً من هـــذه الاختراعات بل لم يفكر فى أنه فى استطاعة الإنسان أن يتمكن من إنتاجها ، ثم جاء الوقت الذى أخذ فيه يخترع كل أداة من هـذه الأدوات مهما كانت بسيطة لأنه لم يكن هناك شىء منها . وهكذا نرى أن قصة تاريخ الإنسان هى — إلى حد غير قليل — قصة الانتصار على الموارد المادية باستعمال حيـــل مختلفة وأدوات وأشياء آلية ، إذا ما أدخلنا فى حسابنا النتائج التى ترتبت على اختراع هذه الأدوات فى النواحى الاجتماعية والسياسية والفنية والدينية . لقد كانت قطعة الحجر التى استصلحها هذا الإنسان البدائى ليستعملها كسلاح فى قبضة يده رمزاً مميزاً للعصر الحجرى قبل مائتى ألف سنة مضت كما أصبح البخار أو الاسطوانة الكابسة فى الآلات التى تدار بالبترول رمزاً على عصرنا الحاضر[١]

لم يعد يعيش على سطح الأرض أى قوم على الحالة التى كان عليها يعيش أقدم البشر أى دون أن يكون لديهم أى علم بالأدوات أو الآلات ، ولكن هناك بعض أقوام متأخرين يحيون حياة همجية وكانوا عند العثور عليهم يحيون حياة من أحط أنواع الحياة السائدة بين القبائل الهمجية ، ويكادون يشبهون أسلافنا البدائيين . ولنضرب مثلا لذلك بسكان جزيرة تسمانيا[٢] الذين انقرضوا الآن فقد كانوا عندما اكتشف الهولنديون جزيرتهم منذ أكثر من ثلاثمائة سنة يعيشون عراة الأجسام ولم يكونوا قد تعلموا بعد كيف يصنعون قوساً أو سهاماً ولم يعرفوا

---

١ ــ كان ذلك قبل الحرب العالمية الثانية صحيحا أما الان فان الاختراعات تقدمت كثيرا وتخطى استخدام الذرة على ماسبقه من اختراعات وأصبحت هى الرمز المميز للعصر الذى نعيش فيه ــ المعرب

١ ــ جزيرة Tasmania تابعة لاستراليا وتقع الى الجنوب منها يفصلهما مضيق باس Bass Strait اكتشفها الملاح الهولندى الشهير أبل تسمان Abel J. Tasman فى عام ١٦٣٩ ــ وهو الذى يرجع اليه الفضل أيضا فى اكتشاف نيوزيلاندا وجزائر فونجا وجزائر فيجى ــ المعرب

صيد السمك إلا بوساطة استعمال الحربة . ولم يكن لديهم خيول أو حتى كلاب . ولم يسمعوا فى حياتهم شيئاً عن بذر الحب أو زرعه ليخرج محصولا من أى نوع . ولم يعرفوا أن الطين يصبح صلباً إذا وضع فى النار . وترتب على ذلك أنه لم يكن لديهم أوان أو أباريق أو أطباق من الفخار لحفظ الطعام . وبالرغم من أنهم كانوا عراة ولا مأوى لهم فقد تعلم هؤلاء التسمانيون كيف يؤدون القليل من حاجات الإنسان ، ومع ذلك فإن هـذا القليل الذى تعلموه حملهم إلى الامام مسافة غير قليلة تفوقوا فيها على الحالة التى كان عليها أقدم أفراد الجنس البشرى . كان فى استطاعتهم أن يوقدوا النار التى كانت تدفىء أجسامهم فى أيام البرد ، وكانوا يطهون عليها اللحم . وتعلموا كيف يصنعون حراباً من الخشب كانت جيدة الصنع جداً ، ولكن لم يضعوا قطعة من المعدن فى آخرها لأنهم لم يكونوا قد سمعوا به . بل كانوا يضعون فى آخر هذه الحراب الخشبية قطعاً من الحجر بدلا من المعدن . وأحسنوا استعمال هذه الحراب ، وكانوا يقذفونها بدقة عظيمة فيصيبون صيدهم الذى كانوا يحتاجونه للطعام ويطاردون بها أعداءهم من الناس . وكانوا يعرفون أيضاً كيف يأخذون حجراً مسنوناً ويشذبون أطرافه ويجعلونها رقيقة فتصبح سكيناً استعملوها رغم أنها كانت غير متقنة وبدائية الصنع لسلخ الحيوانات التى اصطادوها وتقطيع لحومها . وكانوا مهرة جداً فى صنع فناجين وأوانى وسلال من لحاء الشجر . ولكن أهم من ذلك كله انه كانت لهم لغة بسيطة تحتوى على كلمات لجميع الأشياء العادية التى استعملوها أو فعلوها فى حياتهم اليومية .

عاش أقدم البشر عدة مئات من آلاف السنين حياة أقل حضارة من حياة التسمانيين ، وقد عثر العلماء على مخلفات هذه الحياة غير المتمدينة فى كثير من أرجاء أوربا وآسيا وإفريقيا ، ولكن لا يعرف أحد فى أى مكان تمت جميع المراحل التى ساعدت على تكوين الإنسان كما نعرفه الآن ، أو بعبارة أخرى المكان الذى تمت فيه عوامل

ما نسميه الإن بالنشوء . أدهنالة ك لا بأس بها تجعلنا نظن أن ظهور الإنسان لأول مرة كان فى أفريقيا . كما أن هناك أدلة لا بأس بها أيضاً على أنه نشأ فى آسيا . وكان ظهور الإنسان فى ذلك الزمن البعيد الذى يسميه الجيولوجيون باسم البليوسين Pliocene أى منذ بضع ملايين من السنين ، وكان فى نشأته الأولى لايكاد يختلف عما حوله من الحيوانات الأخرى التى عاش بينها . كانت هذه الحيوانات أقل ذكاء منه ولكنه شابهها فى عدم تركه وراءه ما يبقى على مر الأيام ليدل على وجوده ، فقد كان التقدم الذى رفعه إلى مستوى أعلى من مستوى الحيوانات المنافسة له يكاد لا يحس به أحد فى البداية . كان بطيئاً جداً . إذ استغرق التقدم الذى أوصله إلى عتبة الحضارة ملايين السنين ، كما استمر هذا البطء أيضاً بعد أن خطا تلك الخطوة وبعد أن أسرعت به اختراعاته وأدواته التى صنعها بيديه منذ مليون سنة على الأرجح .

واستطاع الأثريون فى غرب أوربا أن يجمعوا من مصادر متعددة ما مكنهم من كتابة قصة مفصلة جـــداً لحياة الانسان قبل ظهور المصادر المكتوبة ، وجاءت الاكتشافات الحديثة فى إفريقيا وآسيا وشرق أوربا فأيدت إلى حد كبير النتائج التى وصل إليها زملاؤهم العلماء الذين كانوا يعملون فى غرب أوربا ، وهكذا أظهرت الأبحاث فى كل المناطق التى كانت ميدانا للبحث تشابهاً عاما فى تتابع مراحل التقدم الانسانى نحو الحضارة . ولكن كيفما كان الأمر فمن الواضح أن مثل هـذا التقدم لا يمكن أن يحدث فى وقت واحد أو على وتيرة واحدة فى أمكنة مختلفة فى العالم . فمثلا استطاع كل من سكان مصر وغرب آسيا من اختراع الكتابة قبل أن يعرف غربى أوربا أية طريقة للكتابة بثلاثة آلاف سنة . وكذلك استعمل المصريون وسكان غربى آسيا الأدوات المعدنية وكانت لهم صلة تجارية بغيرهم من الأمم بوساطة السفن فى الوقت الذى كان فيه الأوربيون مازالوا يبنون منازلهم مستعينين بأدوات من الحجر ، ولم يعرفوا على الأرجح أية وسيله من وسائل الملاحة غير الزورق المنحوت فى

جذع الشجرة . ومع هـــذا فهناك أمر اتفق عليه جميع الباحثين وهو أن مراحل الحضارة القديمة التى كانت أساساً لحضارتنا الحالية لم تنشأ فى قارة أوربا بل إنها تطورت فى الناحية الشرقية من البحر الأبيض المتوسط فى كل من مصر وغرب آسيا . ولكنه من الأسلم بل ومن الأفضل أن نتتبع قصة حضارة الإنسان فى أقدم عصوره فى كل بلاد البحر الأبيض بدلا من تتبعها فى قطر واحد لأن هؤلاء الناس عاشوا حول هذا البحر ثم انتشروا منه إلى داخل القارات فذهبوا شمالا إلى البحر الشمالى وعبروا إلى الجزر البريطانية وانتشروا جنوبا عبر إفريقيا فى المنطقة التى نسميها الصحراء الكبرى واتجهوا أيضا نحو الشرق حتى اجتازوا الخليج الفارسى .

كانت أراضى منطقة البحر الأبيض المتوسط عندما ظهر الإنسان مختلفة عما هى عليه الآن فكانت الغابات الشامخة على ضفتى مجارى الأنهار فى أوربا ، وكانت تملأ كثيرا من وديانها المتسعة ، وكانت تغطى أيضا أجزاء من هضبة الصحراء الكبرى التى كان أكثرها فى تلك الأيام منطقة خضراء وفيها المياه الكافية . وكانت أفراس النهر ذات الحجم الهائل تتمرغ على شاطىء تلك الأنهار ، وكان وحيد القرن الشرس الطباع يهاجم مايعترض طريقه فى النباتات الكثيفة على جانبى الأنهار . وكانت هناك فيلة ذات أنياب هائلة الحجم ترعى إلى جانب ما بقى إذ ذاك من حيونات . أما فى أوربا فإن أسلاف ماشيتنا الأليفه كانت ترعى فى المرتفعات ، وكانت أسراب الأيائل تأوى إلى بعض أشجار الأماكن الفسيحة فى وسط الغابات . وكانت قطعان الخيل الوحشية تتجول هنا وهناك ووصل بعضها جنوبا إلى إيطاليا . وكانت بعض الثدييات الأفريقية ذات الحجم الضخم تتجول كما يحلو لها من كل مكان من أوربا وإفريقيا ومن بينها الفيل الجنوبى (Elephas meridionalis) الذى كثيرا ما يعثر على عظامه الآن فوق المنحدرات العليا لنهر السين (Siene) أو وادى التيمس (Thames) وهذا يثبت أن إفريقيا كان متصلة بأوربا فى عصر ما ، وأن هـــذه الحيوانات وصلت برا من الواحدة إلى الأخرى .

أما الناس فكانوا يضربون فى عرض غابات أشجار السيكويا (sequoia) محترشين عراة الأجسام يجمعون قوتهم اليومى من بين جذور النباتات والحبوب والفواكة البرية حيثما يعثرون عليها ، ينصتون بحذر إلى صوت حيوانات الصيد الصغيرة التى عساهم يحصلون عليها بمساعدة عصيهم الخشبية البسيطة ، لأنه يجب أن نفترض أنهم استعملوا مثل هذا السلاح الخشبى لأن الغابات كانت ملأى بفروع الأشجار الجافة التى سقطت على الأرض .

وفى هذا العصر الخشبى الذى زالت كل ادواته وأسلحته أحس الانسان البدائى بأول دافع فى هذا الكون بأنه فى حاجة إلى تشذيب فروع الأشجار التى سقطت على الأرض ليجعل منها أداة أو سلاحاً لتأدية غرضه ، ومعنى ذلك أن أول مخلوق صنع الأدوات ولد فى ذلك العهد ، وكان بهذا الجد الأكبر لكبار المخترعين أمثال « وات » Watt و « اديسون » Edison

وفى فترة من فترات التطور البدائى لهذا الانسان تطورت أيضا إشاراته الصوتية المعبرة عن الخوف أو الجوع أو العطش أو الأسى إلى أبسط نوع من أنواع الكلام . فكانوا إذا أحسوا بضجة الحيوانات الكبيرة فى الغابة أو لمحوا قطعان الفيلة آتية من بعيد يفرون مذعورين وهم يتصايحون لينبهوا إخوانهم . وفى الليل كان الصيادون ينامون فى كل مكان أوصلهم إليه صيدهم ، ينامون بعد تقطيع لحم فريستهم بمدى من الخشب على الأرجح ويأكلونها دون طهى . ولم يكونوا قد عرفوا النار ليدرأوا بها الحيوانات المفترسة فكانوا يقضون ليلهم يرتجفون فى الظلام عند سماعهم لزئير النمر الكبير ذى الأنياب الحادة . وأخيرا عرفوا ما هى النار ، عرفوها على الأرجح فى الغابة عندما أصاب البرق شجرة فالتهبت ، ولابد أنهم تعلموا أيضا كيف يخافونها عندما كانوا يقفون بعيدا ويرون البراكين المخيفة مثل « إتنا Etna » و « فيزوف Vesuvius » وكانت خطوة كبرى يوم عرف

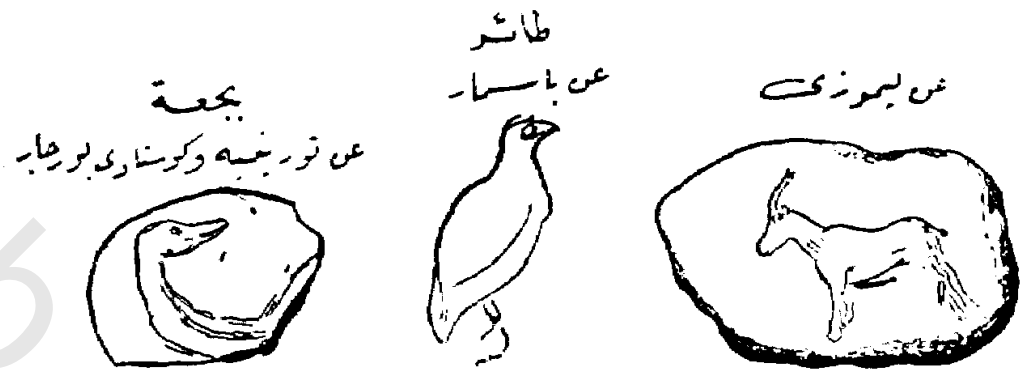

IBEX
(After Lemozi)

BIRD
(After Passemard)

SWAN
(After Tournier and Costa de Beauregard)

WILD CATTLE
(After Capitan-Breuil-Peyrony-Bourrinet)

ASS AND FOAL
(After Frobenius-Obermaier)

BEAR
(After Capitan-Breuil-Peyrony)

BOAR
(After Obermaier-Wernert)

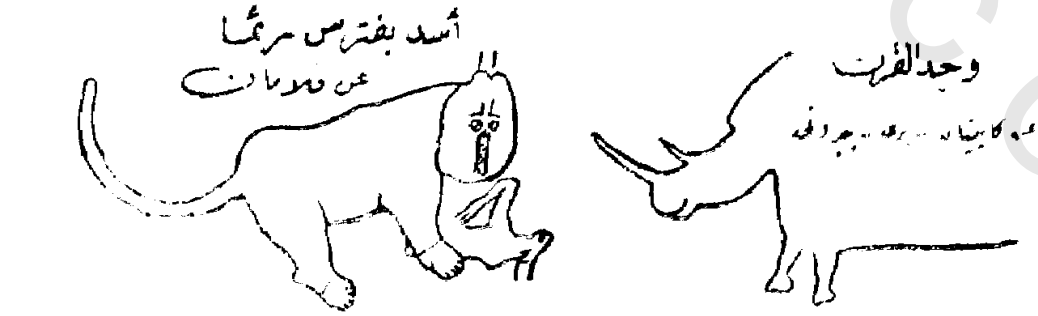

RHINOCEROS
(After Capitan Breuil-Peyrony)

LION DEVOURING ANTELOPE
(After Flamand)

شكل : ١ حيوانات العصر الحجرى

تلك هى بعض الحيوانات التى نجدها فى النقوش الملونة والرسوم التى تركها الانسان الذى عاش فى العصر الحجرى . انظر أيضا شكل ٦

هؤلاء الأوائل بعد وقت طويل كيف يشعلون نارا بأنفسهم ، فاستطاعوا أن يعدوا طعامهم ويدفئوا أجسامهم ثم جعلوا نهاية حرابهم الخشبية أشد صلابة بوضعها فى تلك النار . ولكن لم يستطيعوا أن يجعلوا سكاكينهم البدائية أكثر صلابة كما فعلوا بالحراب . وربما كانت نتيجة ذلك أنهم تعملوا صناعة هذه السكاكين من العظم ، وكثير ما التقطوا أيضا حجرا صغيرا مكسورا من حجر آخر واستعملوا حده غير المشذب فيما يستعملون فيه تلك السكاكين من أغراض . وفى يوم من الأيام ـ وكان ذلك فى أغلب الظن قبل مليون سنة تقريبا ـــ عرف الانسان كيف يهذب الحجر ليصبح ملائما لحاجته وصنع منه آلة بسيطه أو سلاحا ، وبهذا دخل فيما نسميه الآن العصر الحجرى (Stone Age).

كانت هذه الأسلحة والأدوات الحجرية خيرا مما سبقها فلم تتعفن ولم يقض عليها الزمن مثل مثيلاتها من الخشب والعظم ، وبقيت إلى الآن ، وأصبح فى ميسورنا أن نقبض فى أيدينا على الأدوات الحجرية نفسها التى تمكن بواسطتها أوائل الناس من الاحتفاظ بوجودهم أثناء نضالهم المستمر ليحصلوا على القوت ويجدوا مكانا بين مناوئيهم من الحيوانات الضخمة التى كانت حولهم ، وأوضحت لنا هذه الأدوات الحجرية وبقايا أجسام الأوائل التى عثر عليها فى الطبقات الجيولوجية فى صورة لا تقبل الشك مدى الزمن الطويل الذى مضى على الانسان منذ ظهوره فى هذه الدنيا . وكان من المفروض حتى وقت قريب أن التاريخ الانسانى كان قصيرا نسبيا . وكان من المفروض أيضا أن أجدادنا الأقدمين فى أوائل وجودهم على الأرض لم يخلفوا وراءهم مايدل عليهم . فنحن نعرف مثلا من خطاب مؤرخ فى عام ١٧١٤ أن صيدليا عثر على عظام فيل فى بقعه ملأى بالحصى على مقربة من لندن ، وإلى جانب هذه العظام وجد أيضا سلاحا من الظران . وقد نشر هذا الخطاب عقب الاكتشاف مع رسم لهذا السلاح الحجرى واستنتج الكاتب أن ذلك الحيوان لم يكن إلا فيلا من الأفيال التى كان يستعملها الرومان فى الحرب وأنهم أتوا به إلى تلك البلاد ، ولم يلق

شكل : ٢ جماعة من هنود أمريكا الشمالية يصنعون آلات الطران

يقوم الشخص الاخير فى الصورة بانتقاء حجر كبير ، وتلك هى المادة الاولية التى يأخذها الهندى الذى فى الوسط ليحطمها فوق صخرة الى قطع صغيرة. ويأخذ الهندى الثالث احدى تلك القطع بعد ذلك فى يده اليسرى ويضربها بحجر فى يده اليمنى ، فتتناثر شظايا الظران وقد برع ذلك الهندى فى عمله وأصبح من السهل عليه أن يشكل تلك القطعة الى فأس من الظران . وكانت هذه العملية ، وهى عملية تشكيل الظران بوساطة الطرق أو القرع هى أقدم الطرق وأكثرها سذاجة ، وكانت لاتنتج الا الادوات الحجرية الخشنة الصنع

أحد بالا إلى هذا الاكتشاف وسرعان مانسيه الناس . وفى مدى قرن من الزمان بعد ذلك تكرر العثور على أمثال هذا الاكتشاف سرا فى انجلترا أو فى القارة الأوروبية وكان مصيرها أيضا النسيان . وظل الأمر كذلك حتى عام ١٨٦٠ أى بعد مضى مايقرب من قرن ونصف على العثور على هذا الاكتشاف . ففى ذلك الوقت فقط تفتحت عيون العلماء على حقيقة طول فترة وجود الانسان على سطح الأرض ، وعرف العلماء أن الانسان خلف وراءه كثيراً من تلك الأدوات الحجرية منذ مليون سنة [١] على الأرجح وعرفنا من دراسة هذه الأدوات كيف كان هذا الانسان يحسن وسائل حياته وذلك من تقدمه فى صناعة وتشكيل الأحجار واطراد التحسن فى الصناعات الأخرى التى بدأ يتعلمها . كانت أوربا وخاصة فرنسا أولى البلاد التى بدأ فيها بحث العلماء عن أدوات ومخلفات الانسان الذى عاش فى العصر الحجرى . إذ ترك الصيادون الأوائل بعض آلاتهم الحجرية البدائية وأسلحتهم جنبا إلى جنب مع عظام الحيوانات الكبيرة التى قتلوها . وبقى كل ذلك فى الرمال والحصى على جوانب مرتفعات الوديان التى كانت تجرى فيها أنهار فرنسا قبل أن تعمق مجراها . وعثر الحفارون فى فرنسا على الكثير من مخلفات الحياة فى العصر الحجرى . وكانت كثيرة إلى حد جعلهم ينشئون مجموعات فى المتاحف لتلك الأدوات

---

١ ـ أثبتت أبحاث بعثة دراسات ماقبل التاريخ التى قام بها المعهد الشرقى بجامعة شيكاغو فى مصر أن المرحلة الاولى التى بدأ فيها الانسان يصنع الادوات ترجع الى فترة البليو ـ بليستوسين (Plio-Pleistocene) اى ان العصر الذى يسبق مباشرة بداية البليستوسين او العصر الجليدى اما الجيولوجيون الامريكيون فيرون أن منطقة أعالى نهر المسيسيبى هى خير مكان فى العالم لدراسة العنصر الزمنى فى العصر الجليدى . وقد وصل الدكتور جورج كاى George F. Kay بعد دراسات طويلة متصلة وخاصة بالمراحل فى ولاية أيوا (Iowa) الى القول « ويلوح انه امر محقق اذا قلنا أن عصر البليستوسين (أى عصر الجليد) استمر مليون سنة وربما ضعف هذا الوقت » (انظر خطابه كنائب رئيس الجمعية الجيولوجية الامريكية George F. Kay, Classification and Duration of the Pleistocene Period, فى مجلة Bulletin of the Geological Society of America, vol. 42 (1931) P. 466

ولكننا يجب أن نضع فى ذهننا أن ماوصلت اليه معلوماتنا فى البحث فى هذا الموضوع لايكفى لوضع تاريخ محدد لايحتمل الشك

الحجرية ، وظهر بعد ذلك الكثير من أمثالها وبنفس الكثرة فى ممالك أوروبية أخرى ، وهكذا كان الأمر فى شمال أفريقيا إذ عثر الباحثون على آلات حجرية فى منطقة تبدأ من الجزائر إلى أسفل وادى النيل ، وفى آسيا أيضا على إمتداد الشاطىء الشرقى للبحر الأبيض المتوسط .

وبالرغم من أن هؤلاء الأوائل من بنى الانسان كانوا على مايظهر يموتون بكثرة نتيجة لحياتهم المحفوفة بالمخاطر فإنهم استمروا آلاف السنين فى كفاح مر لأجل البقاء ، وتحسنت أسلحتهم البدائية المصنوعة من الحجر ، وكان هذا التحسن بطيئا ، ومن المحتمل أنهم تعلموا أيضا كيف يصنعون أدوات أخرى من الخشب ، ولكن الأخيرة تعفنت واختفى أثرها ولم نعد نعرف شيئا عنها .

لم يكن هناك حيوان لم يجد فيه هؤلاء الصيادون عدوا لهم ، وكان عليهم أن يجردوا كلا من أسلحتهم الصغيرة ومكرهم ليحاربوا بها قوة الحيوانات ومكرها . لم يكن هناك حتى ذلك العهد كلب أو شاة أو طير يعطفون عليه ، إذ كان سلف هذا الكلب الأليف مازال حيوانا مفترسا شبيها بالذئب يعيش فى الغابة يثب على كل صائد لايكون على حذر . وكانت أسلاف حيواناتنا الأليفة بوجه عام تتجول فى الغابات فى حالة وحشية . ولكن مع كل هذه الصعاب ورغم كل ما كان يعوق طريقه فى سبيل البقاء فقد كان ذلك الانسان الذى عاش فى عصر البليسوسين أسعد حظا من أخيه الذى جاء بعده ، وذلك أنه كان يعيش فى جو دافىء معتدل حيث كان جمع القوت أمرآ سهلا وميسورا .

العصر الجليدى الكبير

والانسان فى العصر الحجرى القديم

كانت الأرض فى ذلك الوقت غنية بحيوانها ونباتها ولكنه كان مقدرا لها أن تمر بفترة من أحرج الفترات فى تاريخها . كانت هناك عمليات تكوين فى الجبال وحركات أرضية فى عصر البليوسين Pliocene ولما كانت هذه العمليات مرتبطة بتغيرات مناخية هامة تأتى على أثرها فإن نتائجها كانت دائماً وخيمة العاقبة . ولم يكتشف الجيولوجيون والمناخيون حتى الآن السبب الذى جعل المناخ يصبح أشد برودة وأكثر رطوبة مما كان عليه منذ آلاف السنين ، وتساقطت الثلوج بكثرة وخاصة على قمم الجبال نتيجة لهذا التغيير وبدأت تلك الثلوج تتراكم وتنتشر حول مراكز سقوطها . وفى النهاية تكونت طبقات هائلة من الثلج فوق الأرض تقدر مساحتها على سطح الأرض بنحو ١٢ مليون ميل مربع . وفى العصر الذى بلغ فيه الثلج أقصاه يرى بعض الباحثين أن الثلج امتد عبر أمريكا الشمالية وجنوبا حتى جزيرة لونج (Long Island) وغربا حتى وديان أوهيو Ohio وميسورى (Missouri) وفى أوربا وآسيا وصلت حواف الطبقات الجليدية الشمالية العظيمة إلى الساحل الجنوبى لإنجلترا وامتدت جنوبا وشرقا عبر أوربا حتى خط عرض ٥٠ فى وادى الدنيبر Dnieper ، ومن هناك اتجهت شمالا وشرقا إلى جبال أورال . ويظهر أن مساحات أخرى من الثلاجات زحفت من جبال البرانس (Pyrenees) والألب وجبال الكاربات Carpathians والبلقان فى أوربا ، ومن سواحل آسيا الصغرى ، ومن لبنان والقوقاز والزاجروس (Zagros) وغير ذلك من جبال ايران فى غرب آسيا ومن القمم المرتفعة فى وسط آسيا .

أما فى نصف الكرة الجنوبى فإن الثلاجات تركزت فى القارة المتجمدة الجنوبية.

وسنطلق على هـذا العصر الجليد اسم « العصر الجليد الأعظم » تفرقة له من عصور جليدية أخرى حدثت فى فترات سابقة من تاريخ الأرض .

ويعمل الچيولوچيون على تحديد حركات وامتداد طبقات الجليد من الآثار التى خلفتها . ومثل هذه الظواهر ـ ظواهر تحركات طبقات الجليد ـ توجد فى الوديان المتكونة من تآكل التربة . وتوجد مثل هذه الدلائل عن تحركات الغطاء الجليدى فى أماكن وجود الصخور المنتقلة، وتوجد أيضا فى طبقات الطين المتراكمة فوق بعضها أو فى المستويات المتوازية المحفورة فى الصخور التى مرفوقها الغطاء الجليدى .

ومن النتائج التى وصل إليها العلماء فى دراسه مجارى الثلاجات، القطع بوجود عدة عصور جليدية تفصل بينها فترات أدفأ عندما ذابت الثلوج تماما أو قلت نسبيا. ويختلف الچيولوچيون الآن فى تحديد عدد العصور الجليدية إلا أنهم متفقون فى وجود اختلاف فى المناخ أثناء العصر الجليدى الأعظم وما تلا ذلك خلال نحو مليون من السنوات عندما كانت الطبقات الجليدية تزحف وتتراجع مرات عـدة . ومن الواضح أن المساحات المحيطة بالطبقات الجليدية كانت شديدة البرودة ، ولـكن بالرغم من هذا فقد كانت هناك أجزاء كبيرة من فرنسا والنمسا والمانيا لم تكن مغطاة بتاتا بالثلوج وأن كثيرا من رواسب الفترات التى تخللت العصور الجليدية تحتوى على بقايا حيوانات مما تعيش فى المناطق المعتدلة أو النصف استوائية مثل فرس النهر والأسد فى إنجلترا والجمل وحيوان التاپير tapir فى جنوب أمريكا الشمالية . وفى خلال الفترات التى فصلت بين العصور الجليدية كان مناخ أوربا وأمريكا الشمالية دافئا كما هو الآن . وعلى هـذا يمكننا القول بأن مساحات كبيرة من أمريكا الشمالية وأوربا كانت آهلة بالسكان طوال العصر الجليدى الأعظم الذى يطلق عليه الچيولوچيون اسم بليستوسين Pleistocene

وكان زحف الجليد سببا فى جعل حياة الناس الأوائل شمال حوض البحر

الأبيض المتوسط شديدة قاسية ،ومن الجائز أن هؤلاء الاوربيين الأقدمين تقدموا كثيرا فى ثقافاتهم فى الفترات التى توسطت عصور الثلج ، وإذا فحصنا خريطة لشمال إفريقيا فإننا نرى أن فى المنطقة الواقعة جنوب البحر الأبيض المتوسط لاتوجدإلا مساحة واحدة من تلك المساحات التى كانت تغطيها الثلوج وهى التى تقع فى أقصى الغرب فى المنطقة المجاورة لجبال أطلس . ومن ثم لم تزحف الثلوج على الهضبة المستوية فى شمال إفريقيا وهى المنطقة التى نسميها الآن هضبة الصحراء الكبرى . ومن المحتمل أن نفس الرطوبة الجوية التى كونت الثلاجات الهائلة على الجانب الشمالى للبحر المتوسط كانت هى العامل نفسه الذى سبّب سقوط أمطارغزيرة على الجانب الجنوبى فوق تلك الهضبة ، وكان من أثرها نمو المراعى والغابات والأحراش فى أجزاء كثيرة منها . ومن المحتمل أن الصيادين تتبعوا الحيوانات عبر هذه الأراضى الخصبة فى شمال إفريقيا كما هو الحال الآن فى الهضاب الواقعه فى وسط جنوب إفريقيا. وكان هؤلاء الصيادون الأوائل يسيرون وراء الحيوانات إلى المجرى الذى حفره نهر النيل عبر الحد الشرقى للصحراء . وكان النيل فى ذلك العهد أوسع بكثير مما هو عليه الآن . وكان مثل نهر الميسورى (Missouri) يغير مجراه ولا يرجع إلى مجراه القديم مرة أخرى . وقد كشف البحث منذ وقت غير بعيد عن أحد المجارى الجافة لهذا النيل القديم الذى يبلغ طوله أكثر من ٥٠ ميلا موازيا لمجرى النهر الحالى . وعند الحفر فى تراب مجراه إلى عمق أكثر من ١٨ مترا وجد الأثريون بعض أسلحة حجرية للصيادين الأوائل من الهضبة المستوية (الصحراء الكبرى) فقدوها أثناء بحثهم عن الحيوانات على ضفاف النهر ،وكان ذلك منذ مليون سنه على الأرجح ،

وتسمى أقدم الآلات التى صنعها الإنسان باسم الآلات الباليوليتية Palealiths ويسمى الأثريون الوقت الذى صنع فيه الإنسان هذه الأدوات بالعصر الباليوليتى أو العصر الحجرى القديم .وإذا أردنا تحديد مكان هذا العصر بين العصور الجيولوجية

من تاريخ الأرض فاننا نرى طبقات البلايستوسين Pleistocene strata فى الطبقات الباليولينية Paleoliths فى جميع الأراضى الواقعة حول البحر الأبيض المتوسط . وعلى هذا فان العصر الحجرى القديم للإنسان اتفق مع كثير من فترات العصر الجليدى الأعظم ، وتلك الادوات الباليولينية مصنوعة من الظران ،وكانت تهذب لتأدية الشكل المطلوب بطريقتين : أولاهما وأقدمهما طريقة الطرق أى شظف قطعة بضربات من قطعة أخرى وثانيتهما الطريقة الاحدث وهى الضغط وذلك باستعمال قطعة صلبة من العظم أو القرن لتهذيب جانب واحد ثم يلى ذلك تهذيب الجانبين معا [1]. ومن أهم الادوات التى تميز أدوات العصر الباليوليتى نوع من الفؤوس هو أقدم الآلات اليدوية الثقيلة . وهذا النوع هو ما اصطلح الأثريون على تسميته باسم « قبضة اليد »(Coup de poing)وقد وجد الكثير من هذه الفؤوس فى الحصى فى كثير من المناطق حول البحر الابيض المتوسط كما وجدت أيضا فى كثير من الاجزاء الاخرى فى الكرة الارضية .وكانت فؤوس قبضة اليد أوسع اختراعات الانسان انتشاراً. وهناك أدوات أخرى مصنوعة من الظران صنعها الانسان الباليوليتى واستعملها كمخارز ومكاشط ونصال سكاكين وأسنة (ربما كانت تستعمل ليرموا بها ما يريدون صيده) ومقاطع ومطارق .

وإذا أردنا دراسة حالة الإنسان الباليوليتى من الناحية الاجتماعية أو الصناعية نجد أنه ينتمى إلى المجموعة التى يطلق عليها علماء الاجناس البشرية اسم « جامعى الغذاء » : وهم البدائيون الذين يأخذون ماتهبهم الطبيعة ولا يعملون شيئا ليزيدوا الانتاج الذى يأتيهم من الطبيعة . وكان الرجال يجلبون إلى بيوتهم اللحوم التى حصلوا عليها من الصيد، أما النساء فكن يجمعن الفاكهة والحبوب التى يجدنها نامية . وبالرغم

---

١ ـ عند اكتشاف جزيرة تسمانيا كان سكانها يصنعون أدواتهم كما كان يصنعها الذين عاشوا فى العصر الحجرى القديم

من أن مثل هؤلاء الناس لم يكونوا يعيشون فى أماكن ثابتة ويتجولون عادة لجمع القوت من مكان لآخر بعد أن يستنفدوا مافيه من قوت إلا أنه من الطريف أن نجد فى أوربا الباليولية بعض أماكن إستمر الانسان فى سكناها عصرا بعد عصر

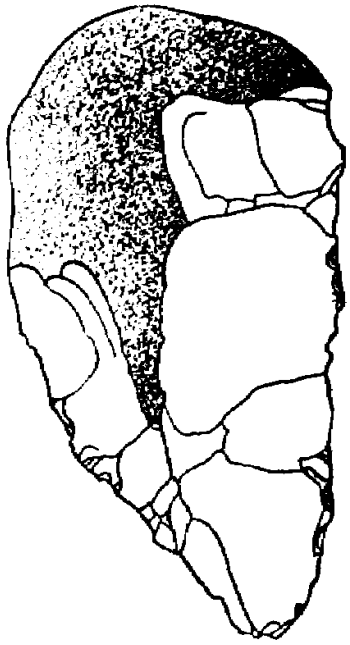

هذه الآله كان يقبض عليها باليد من الناحية الاكثر سمكا ولم يكن لهذه الفأس يد بالمرة . والفأس التى تبدو فى الصورة يبلغ طولها نحو ١٨ سنتمترا . وقد عثرت عليها بعثة المعهد الشرقى التابع لجامعة شيكاغو

شكل ٣ : فأس قبضة اليد وجدت فى مجرى قديم من مجارى نهر النيل

وإذا أردنا معرفة السبب الذى جعل هؤلاء الناس يعيشون فى تلك الأماكن فاننا نرى أن السبب الرئيسى ربما كان البرد الشديد وقلة الكهوف والمآوى الصخرية الدافئة الجافة . كما أن هناك سبباً آخر لاستمرار وجود أمثال هؤلاء الناس فى أماكن معينة هو وجود الظران الذى يصنعون منه أدواتهم ،وهكذا أصبحت بعض الكهوف والمآوى الصخرية سجلا لتقدم الإنسان الذى عاش فى ذلك العصر ،وذلك عند حفر طبقات تلك الكهوف ودراسة ماتركه ذلك الإنسان منذ اليوم الذى تمكن فيه من تشكيل أدوات الظران .

وفى هذه الأماكن الباليولية وجدت مدافن تحوى بقايا آدمية وأدوات شخصية للزينة وأسلحة أو آلات ـ وربما كانت هذه الأخيرة لأجل الحياة الأخرى

بعد الموت . وترينا هذه المدافن أن الرجل الباليوليتى لم يكن حيوانا مفكرا وحسب بل أن بقايا عظامه ترينا أيضا بعضا من خصائصه الجثمانية ، إذ ثبت لنا من قامته القصيرة (من ١٤٢ - ١٦٠ سم) ومن وضعه المنحنى ورأسه إلى الامام ومن أرجله القصيرة وجبهته المتراجعة ، ومن البروزات الظاهرة فون عينيه ، ومن أنفه العريض وفكه البارز أنه كان صورة للانسان فى مرحلة من مراحل تقدمه ، تلك هى صورة انسان النياندرتال (Neanderthal Man) الذى أخذ تسميته من إحدى المناطق الالمانية حيث عثر على مثل من أحسن الامثلة التى تحمل طابعه فى سنة ١٨٥٦ . عاش رجل النياندرتال آلاف السنين وتطورت حياته بالتدريج إلى أن جاء الوقت الذى نجد فيه رجل الاوريجانس (Aurigancian Man) نسبة إلى كهف أوريجانس فى فرنسا حيث عثر على سبعة عشر جثة منه تختلف فيما بينها ولكنها جميعا أطول قامة وأكبر من النياندرتاليين ولكن واحدا من هذه الانواع الاوريجانسية كان غير طويل القامة إذ لم يزد عن ١٦٧ سم بينما نجد نوعا أوريجانسيا آخر إسمه « كرومانيون » (Cro-Magnon Man) نسبة إلى المغارة الفرنسية التى تحمل هذا الاسم ، تصل قامته أحيانا إلى ١٩٥ سم وليس هناك أى ظل من الشك فى أن هؤلاء الاوريجانسيين أقرب إلى الانسان كما هو الآن .

كان الصيادون الاوريجانسيون أكثر حنكة ومهارة ممن سبقهم من النياندرتاليين . عرفوا كيف يشظفون أدواتهم المصنوعة من الظران بإتقان وتناسب أكثر من ذى قبل . وكانت نصال سكاكينهم الصوانية ذات الحواف المشطوفة حادة لدرجة تكفى لتقطيع وتشكيل العظم والعاج وخاصة قرون أيل الرنه (Reindeer) . وأمد حيوان الماموث (Mammoth) هؤلاء الصيادين بالعاج ، وعندما احتاجوا للقرون وجدوا قطعاناً عظيمة من الرنة دفع بها الجليد نحو الجنوب ، وهكذا أصبحت الرنة فى ذلك الوقت من أكثر الأشياء التى اعتمد عليها الإنسان ، إذ استعمل الجلد للملبس واللحوم للطعام والقرون والعظام للاسلحة مما حدا ببعض

الباحثين لأن يطلق على هذا العصر « عصر الرنة » واستطاع الصيادون أن يصنعوا أسنة ذات شعب بفضل ما كان لديهم من أدوات. وكانوا يربطون خطافات الصيد

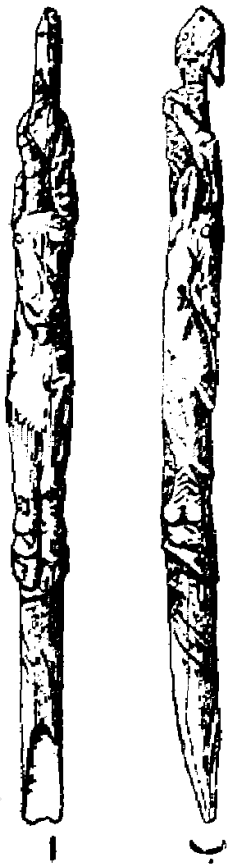

شكل : ٤ منظران لرامية حراب واحدة ، كان يستعملها صياد بالبوليتى

ا ـ كما ترى من الامام ب ـ كما ترى من الجنب وهى محفورة من قرن الرنه وفيها الرأس والارجل الامامية ل ٠٠٠ ٠ لاحظ الخطاف فى قمة ب لامساك الهدف الذى تصوب نحوه الحربة ٠ ورامية الحربة والقوس هما أقدم مخترعات الانسان لقذف أسلحته بسرعه

إلى حراب خشبية طويلة ، وكان يحمل كل فرد منهم حول وسطه خنجراً حاداً من الظران . وفى تلك الفترة اخترع الإنسان القوس والسهم أيضاً لأننا نجد رسوماً على الصخر تصور الصيادين وهم يستعملونها . وتوصلوا بذكائهم إلى صناعة ما يمكن أن نسميه مقدم الحربة ، وكانت من قرن الرنة ،وكانت تستعمل لضمان عدم تقوس الحراب أو السهام . ونوصلوا أيضاً إلى اختراع ناجح يوم تمكنوا من صناعة أداة من القرن أو العاج مكنت الصائد من رمى حربته الطويله إلى مسافة أبعد وقوة أكثر من ذى قبل . وتدلنا شصوص الصيد والخطاطيف على أن رجل العصر الحجرى بدأ يكون صياداً للسمك كما كان صياداً للحيوانات . وتدلنا الإبر

العاجية الدقيقة الصنع على أن هؤلاء الناس تعلموا أن يقوا أنفسهم من البرد ومن أشواك النباتات البرية وذلك بوساطة ملابس كانوا يحصلون عليها بخياطة جلود الحيوانات المفتولة إلى بعضها . وبذلك أصبح صيادو العصر الباليوليتى المتأخر أعداء أقوياء بالنسبة للحيوانات إذا قارناهم بمن سبقوهم . وقد استطاع الأثريون أن يخرجوا من كهف واحد فى صقلية عظام مالا يقل عن ألفين من فرس الماء التى كان الصيادون قد قتلوها . وفى فرنسا قتلت جماعة من هؤلاء الناس خيولا برية كثيرة لطعامهم لدرجة أن العظام التى ألقوها حول محلة نيرانهم تجمعت فى أكوام ، وفى النهاية كونت طبقة يبلغ سمكها ٦ أقدام فى بعض الأماكن وتغطى مساحة قدرها ٤٠٠٠٠ قدم مربع وهى مساحة مساوية تقريباً لأربع مربعات فى إحدى المدن الحديثة مساحة كل منها ٥٠ × ٢٠٠ قدم مربع . عثر الحفارون فى مثل هذه الأماكن على الصفارة العظيمة التى كان يستطيع الصياد بواسطتها أن يعلن عودته لأسرته الجائعة التى تنتظره فى الكهف . وعند وصوله إلى هناك كان يجد مسكنه وقد أحاطت به أكوام كريهة من النفايات . ووسط الروائح الكريهة المتصاعدة من اللحوم المتعفنة كان هذا الأوربى المتوحش يزحف داخل الكهف الذى كان يتخذه مسكناً بالليل ، غير مدرك أنه على عمق عدة أقدام تحت أرضية مغارته تتجمع بقايا أجداده طبقة فوق طبقة بفعل آلاف السنين .

وبالرغم من الظلام والهمجية اللذين كانا يكتنفان حياتهم اليومية فإن هؤلاء الصيادين البدائيين كانوا على وشك اقترابهم من الشعاع العظيم الذى ينير النفوس . فعندما كان كل واحد منهم يستلقى ليلا فى مغارته كان يستطيع أن يغلق عينيه ويرى فى مخيلته صورة الحيوانات الهائلة التى كان يتبعها طول النهار . وبالمثل كان يستطيع أن يسترجع فى ذهنه صورة أشجار غريبة تذكره أشكالها بحيوان من الحيوانات أو كان يرى وهو يتقلب صورة كتلة بارزة من الصخر فى مغارته تشبه فى هيئتها شكل الحصان . وهكذا ظهرت فى عقله فكرة المشابهة تدريجيا (الحيوان والشجرة التى تشبهه

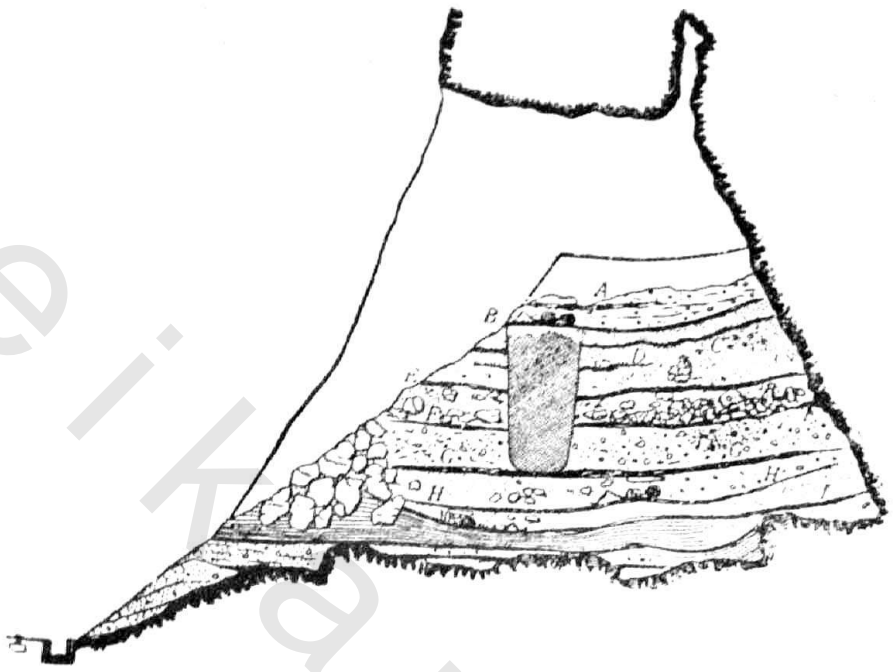

شكل : ٥ قطاع يبين طبقات الرديم
والبقايا الانسانية فى كهف من العصر الباليوليتى

وهذا الكهف فى جريمالدى Grimaldi على الساحل الايطالى للبحر الابيض المتوسط · يوجد المدخل فى اليسار والجدار الخلفى فى اليمين ونرى الارضية الصخرية الاصلية فى القاع وفوقها طبقات الرديم التى يبلغ عمقها ٣٠ قدما وتمثل الخطوط السوداء التى بين أ ، ط طبقات الرماد والخ ··· وهى مخلفات تسعه أماكن نيران تعاقبت وراء بعضها ، ولا بد أن الاهالى استعملوا كل واحد منها سنين طويلة وتتكون الطبقات الاكثر سمكا (المظللة تظليلا خفيفا) من عظام الحيوانات والنفايات والصخور التى سقطت من سقف المغارة على مر السنين · وتحوى الطبقات السفلى (تحت ط) عظام الكركدن (وهى تدل على المناخ الحار بينما احتوت الطبقات العليا على عظام الرنه (وهى تدل على مناخ بارد) · وقد عثر المكتشفون على خمسة مدافن فى الطبقات ب ، ج ، ح ، ط واحتوت الطبقة ح على جثتين لطفلين · وكان المدفن الذى فى أعمق طبقة (فى ى) على عمق ٢٥ قدم من سطح الرديم فى الكهف · وبعد أن نشر المكتشفون هذا الرسم حفروا أمام الكهف فوجدوا على عمق ٦٠ مترا تحت السطح الاصلى للرديم أدوات من الظران وغير ذلك مما خلفه الناس الذين عاشوا هناك

(عن ديشليت Duchette)

والجواد والصخرة المستديرة التى تماثله). واستمر هذا التفكير وبدأ يلاحظ أنه يجب عليه أن يعمل على زيادة مشابهة الصخرة البارزة بيديه لتصبح أكثر مشابهة للحصان. ثم استطاع أن يقلد شكل شيء معين بتشكيل شيء آخر يشبهه . وبهذه الطريقة أمكن لعقله أن يعى التقليد . وفى هذه اللحظة ولد الفن . ودخلت نفس الانسان فى عالم جديد جميل مملوء بنور لم يضىء حياته من قبل . كان جسده يتطور منذ عصور ، ولكن هذا الاكتشاف الجديد الذى وصل إليه وهو أنه يستطيع أن يخلق أشكالا جميلة مستوحاة من الصور التى فى ذاكرته جعلت عقله يرتفع إلى مستوى عال جديد. وهذا أوضح ما عثر عليه الباحثون لبعض رسوم على أحجار صغيرة صنعها أناس مبتدئون محاولين أن يتعلموا الرسم . وهذه الرسوم السريعة تشبه التمرينات الحديثة التى تعلم فى الاستديوهات ، وما زالت التصحيحات التى خطتها يد أستاذ متمرن ظاهر عليها .

وقد عرفنا الكثير عن هذا العصر الانسانى من حياة الانسان فى عصور ما قبل التاريخ، من المجموعات الهامة من الأعمال الفنية التى اكتشفت فى الأماكن البالويلية . يتخذ هذا الفن ، من ناحية ، شكل الحفر والنقش على العظم والعاج والقرون وكذلك الرسم على قطع من الحجر يمكن حملها . وكان بعض هذه الأشياء مفيداً فى الاستعمال مثل رامية الحراب وخطاطيف الصيد واللوحة التى يضع عليها الفنان الوانه ، بينما كان بعضها الآخر لمجرد الفن فقط مثل الرسوم المحفورة على ألواح من الحجر الجيرى أو قطع متفرقة من العظم أو العاج . وتبدو النقوش والرسوم الكبيرة التى تزين جدران الكهوف والمساكن الصخرية فى فرنسا وأسبانيا وإيطاليا أجمل مظهراً ولكنها ليست أكثر أهمية من الأشياء الأخرى . وقد ذكر بعض الباحثين أنه توجد على الصخور التى فى الهواء الطلق فى شمال إفريقيا من الجزائر عبر الصحراء شرقا إلى أعلى النيل رسوم مماثلة . وكل هذه الرسوم غاية فى الجمال ولكن يضارعها

فى الروعة معرفة الرجل الپاليوليتى للألوان . فقد استعمل منها الأحمر والأصفر والأسود . وكانت الألوان الجافة المسحوقة (البودرة) تحفظ فى أنابيب صغيرة مصنوعة من العظام المفرغة عثر على بعض منها فى الكهوف . ومن ضمن الأشياء التى وصلت إلى أيدينا وكانت مما استعمله الفنان الپاليوليتى فى عمله مدقات لسحق الألوان ولوحات لوضع الألوان عليها ، وحفارة من الظران يظهر أنها تركت فى مكانها الأصلى إلى جانب نقش على جدار الكهف . وترينا كل هذه المخلفات إلى أية درجة عالية من المهارة فى الاسلوب وصل الانسان الپاليوليتى بعد أن مر بمراحل التطور ، وترينا كذلك كيف ساعدته مهارته على أن يشعر بجمال الحياة أكثر من قبل . ولكن الانسان الپاليوليتى ذهب فى حضارته إلى أبعد من ذلك ، إذ أنه عندما اعتدل المناخ فى أوربا اختفى الانسان الپاليوليتى واختفت معه صناعاته .

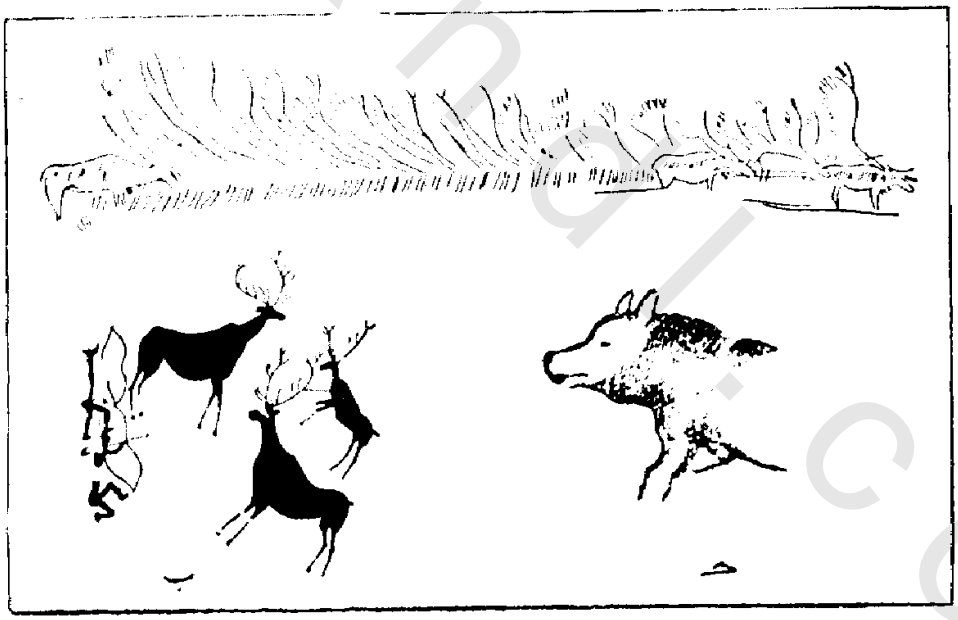

شكل : ٦ أمثلة من فن العصر الحجرى

وجد قطيع الرنة المرسوم فى أ منقوشا على عظمة من جناح صقر . وهذا الرسم يبين لنا أن الفنانين الاوائل كانت لديهم فكرة عن التكوين فى الفن ، وكانوا قادرين على رسم مجموعة من الحيوانات تشعرنا بعدد ضخم وبطريقة تقرب من الطريقة الحديثة فى الرسم . وفى ب يمثل منظر صيد رسمه الانسان الپاليوليتى على مأوى منحوت فى الصخر بعد أن اخترع القوس . أما رسم الذئب فى حـ فانه منقول عن منظر فى كهف فى فرنسا

(عن برى Breuil)

ومن الجائز أن الحضارة تقلصت بعد فترة تقدم عظيم كما حدث بعد ذلك مرات عدة فى التاريخ . ومن الناحية الأخرى نرى أن تغير المناخ سبب تغيرا فى الحيوانات والنباتات ، ففى أوربا تراجعت الرنة والحيوانات الأخرى التى تعيش فى البرد نحو الشمال وامتلأت غابات البلوط الكثيفة بمجموعة مختلفة تماما من الحيوانات كالايائل والثور الوحشى والخنزير البرى، وأصبح الصيد بدون شك أكثر صعوبة. ومن الجائز أن ذلك العصر كان عصر هجرة كثيرة، وأخذ الپاليوليتون يتجولون بعيدا عن مساكنهم ليبدأوا الحياة فى أى مكان يصلون إليه قبل غيرهم .وكيفما كان الحال فإن الآثار الحضارية لهذا العصر الذى جاء مباشرة بعد العصر الجليدى فى أوربا ، تدعو إلى الأسف فهى تكشف لنا عن حياة فقيرة لمجموعات متفرقه من الناس كان أكثرهم يتعيشون من صيد السمك أكثر من صيد الحيوانات . وربما كان أكثر مايدعو إلى الاهتمام هو آثار حياة هؤلاء الأوائل فى اسكندیناوه حيث نجا الجزء الجنوبى منها

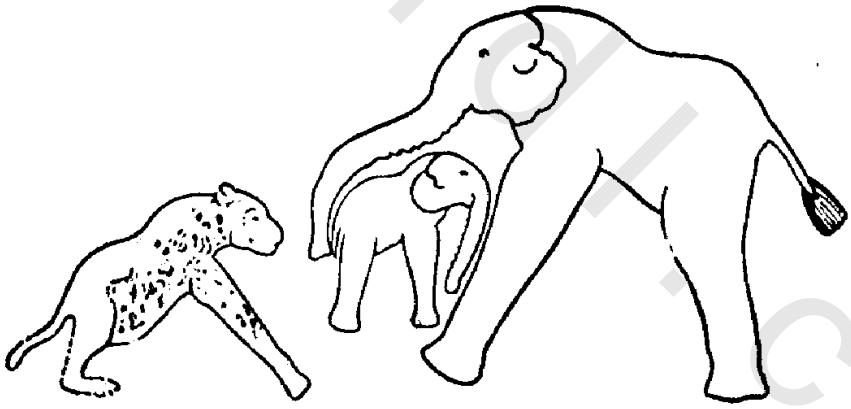

شكل : ٧ رسم على صخر فى شمال أفريقيا يمثل أنثى فيل تحمى صغيرها من هجوم نمر

الفيل الام تلف خرطومها حول صغيرها لتبعد عنه النمر الذى يتأهب للانقضاض عليه • ولم يكن مثل هذا الموقف يدوم أكثر من ثوان قليلة ولكن عين الصياد الافريقى الشمالى التقطت المنظر ، ومن الجائز أن يكون قد رسم رسما سريعا له ثم رسمه كبيرا بعد ذلك على احدى الصخور الهائلة فى جنوب الجزائر • ووجود مثل هذا المنظر فى أكثر مناطق الصحراء جدبا يعتبر دليلا على أن الهضبة الصحراوية كانت منذ آلاف السنين منطقة خصبة تتمتع بأمطار غزيرة

(عن أوبرمايرو فروبنيوس Obermaier-Frobenius)

من الغطاء الجليدى الشمالى وكان صالحا لإقامة الناس قبل ١٠٠٠٠ سنه تقريبا [1] .

وبينما نحن نفترض حدوث عصر هجرة بين أقوام أوربا بعد العصر الجليدى ، فإننا نملك الدليل القاطع على أن الأقوام الذين عاشوا جنوب البحر الأبيض المتوسط اضطروا لأن يهاجروا من الهضبة التى اتخذوها مكانا لهم ليبحثوا عن مقام جديد وأساليب جديدة للمعيشة .وفى وقت ما فى العصر الجليدى بدأت الأمطار التى طالما سقطت بكثرة على شمال إفريقيا تتوقف عن الهطول.وبالرغم من أنه لم يعرف بعد السبب الحقيقى فى قلتها وندرة سقوطها فإن نقصان سقوط المطر كان سببا فى جفاف هضبة الصحراء العظيمة بالتدريج .

واختفت تدريجيا بعد ذلك نباتاتها التى جفت . وبعد بضعة آلاف من السنين تحولت الهضبة الأفريقية الشمالية إلى الصحراء الجرداء التى نعرفها الآن .

وكان وادى النيل فى هـــذه الفترة ذا منفعه حيويه لهؤلاء الصيادين الذين كانوا يعيشون فى تلك الهضبة الصحراويه.ووادى النيل ليس إلا مجرى أو شقابين جبلين لايزيد اتساعه فى أى مكان عن خمسين كيلو مترا تحف به من الجانبين صخور يختلف ارتفاعها من بضعة مئات إلى آلاف الأقدام . وقد هيأ هذا النهر العظيم الذى يتدفق فى ذلك الوادى مقاما جديدا يتوفر فيه المياه لصيادى العصر الحجرى مما جعلهم يتركون موطنهم الأصلى ويستقرون على امتداد شاطىء النيل،وأصبح هـذا الوادى العظيم وطنا آمنـا إذ كانت الصحراء الجافة تحميه من الجانبين ،ولم تكن الثلوج وموجات البرد الشديد شمال البحر الأبيض المتوسط تصل إليه ، وعاش السكان فى هـذا الوادى ، وسرعان ما تقدموا ومن ثم تحولوا من جامعين للغـذاء إلى منتجين له .

---

١ ــ أحصى البارون جيرارد دى Capitan-Breuil-Peyrony العالم الجيولوجى السويدى وتلاميذه طبقات الطين التى أرسبتها الطبقة الجليدية أثناء تقهقرها نحو الشمال عبر اسكندينافيا فى نهـــاية العصر الجليدى ، ويعتقد أن كل طبقة تمثل الطين الذى أسقطه طرف الغطاء الجليدى فى كل صيف ، وبهذه الكيفية حصلنا على تقدير عشرة آلاف سنة